مجلـــة مركز الخدمة للاستشارات البحثية واللغات
كليـــــــة الآداب – جامعة المنوفية

أثر القرينة في دلالة السكوت على الأحكام دراسة فقهية

إعـــداد

ا د/ حسن السيد حامد خطاب
أستاذ الدراسات الإسلامية ورئيس قسم اللغة العربية السابق
ووكيل كلية الآداب – جامعة المنوفية

شعبة النشر والخدمات المعلوماتية

المجلد ٢٣ العدد (٦٥) يناير ٢٠٢١ م

أثر القرينة في دلالة السكوت على الأحكام
دراسة فقهية

ا د/ حسن السيد حامد خطاب
أستاذ الدراسات الإسلامية ورئيس قسم اللغة العربية السابق
ووكيل كلية الآداب – جامعة المنوفية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدلله رب العالمين , الملك الحق المبين , والصلاة والسلام على أفضل المرسلين ,وإمام النبيين, سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . وبعد ,,,

فيعد السكوت جزءًا من البيان الذي علمه الله تعالى للإنسان في قوله تعالى:﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ (الرحمن: ١: ٤)

وهو وسيلة من وسائل البيان البشري, وله من وجوه البلاغة ما قد لا يوجد في الكلام, ويدل على أمور قد لا يدل عليها الألفاظ, فالمتكلم في بعض السياقات يؤثر الدلالة عليها بالسكوت؛ لأنه رأى دلالات, قد لا يقوى عليها اللفظ أو يطول به السياق؛ ولهذا قد نرى في كثير من الأحيان السكوت جوابًا؛ ولذا قال الحكماء:« الحكمة عشرة أجزاء : تسعة في الصمت, والعاشر عزلة الناس».[١]

ومن ثم فإن البيان بالسكوت قسيم البيان باللفظ, ويحتل مرتبة عالية تلي البيان باللفظ, ولأنه الأكثر استخدامًا في حياة الرسول ﷺ ليبين للناس ما نزل إليهم, فنره يسكت أكثر مما يتكلم, وهذا دليل واضح على أن سكوته ﷺ كان وسيلة من وسائل البيان, وهي وسيلة تحتاج إلى تحليل وفهم, كما أن كلامه ﷺ يحتاج إلى تحليل وفهم.

[١] – الصمت لابن أبي الدنيا ١/٣٨.

لكن السكوت تارة يدل على الرضا, وتارة يدل على الرفض, وتارة يكون إقرارًا, وتارة يكون إنكارًا, ويختلف في دلالته على المعنى أوالحكم من شخص لآخر, فسكوت النبي ﷺ ليس كسكوت غيره, وسكوت البكر ليس كسكوت الثيب , والسكوت المصحوب بالبكاء حال الحزن ليس كالسكوت المصحوب باالضحك فى مقام الفرح والاستبشار مما يعني أن للسياق والمقام وقرائن الأحوال أثرًا بالغًا في فهم دلالات السكوت وفي تحديد دلالة السكوت على التصرف ومن ثم على الحكم؛ ولهذا استخرت الله تعالى في دراسة هذا الموضوع : (أثر القرائن في دلالة السكوت على الحكم). حيث إن هذا الموضوع من الموضوعات الفقهية التى تحتاج إلى فهم دقيق لإن السكوت وحده لا يدل على الحكم, ولا ينهض دليلا على المدعي إلا إذا قلنا أن الحكم يتعلق بالسكوت لظهوره, والأحكام عادة تناط بالظاهر عملا بقوله ﷺ :« أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر».[1]

ولو كان مجرد السكوت وحده فيه الدلالة على الحكم لكان مطردًا في كل الأحوال, لكنه يختلف من شخص لآخر, ومن وصف لوصف, ومن مقام عن غيره, فمُلا يحتسب سكوت البكر فقط دليلا على الرضا دون سكوت الثيب.

كما يشترط لكون السكوت دليلا على الرضا, أن يكون في معرض الحاجة.

فإذا كان السكوت في غير معرض الحاجة فلا يفيد ولا يدل على البيان.

ولهذا قعد الفقهاء قاعدة مفادها :(لا ينسب إلى ساكت قول).

وهذا معناه أن السكوت قد يكون إنكارًا؛وقد كون تقريراً؛ لأنه بمفرده لا يدل على الرضا أوعدمه, وإنما لابد من القرائن التي تبينه وتحدد مساره؛ ولهذا سمى الحنفية البيان بالسكوت البيان بالضرورة, وهو ما يقوم فيه السكوت مقام الكلام, فهو من إضافة الحكم إلى سببه,

[1] – التحرير والتوير ١ / ٤٧٢٨ , وقال: هو حديث صحيح المعنى وإن كان في إسناده تردد, وأخرجه مُحَمَّد عابد السندي, في مسند الشافعي ترتيب السندي باب الإيمان والإسلام, ص ١٦. وقال السيوطي في الدرر المنتثرة أمرت أن أحكم بالظاهر إلخ هو من كلام الشافعي.

فالبيان حصل بالسكوت؛ لأجل الضرورة وهي : انعدام الكلام, ودلالة السكوت هنا, أوالبيان حصل بالضرورة.

وينقسم الكلام في هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وخمسة فروع وخاتمة:

- **التمهيد : معنى السكوت والفرق بينه وبين الصمت والإنصات.**
- **الفرع الأول: أثر القرينة في دلالة السكوت على الرضا.**
- **الفرع الثاني: أثر القرينة في دلالة السكوت على التحريم.**
- **الفرع الثالث: أثر القرينة في دلالة السكوت على الإجماع.**
- **الفرع الرابع: أثر القرينة في دلالة السكوت على الإباحة.**
- **الفرع الخامس: أثر القرينة في عدم دلالة السكوت على حكم.**
- **والخاتمة : نتائج البحث**

التمهيد :معنى السكوت في اللغة والاصطلاح والفرق بين السكوت والإنصاف

أولا: معنى السكوت في اللغة:

السكوت في اللغة: الصمت وانقطاع الكلام.

قال الراغب:« السكوت مختص بترك الكلام ».[1]

قال الرازي:« سكت: يسكت سكتًا وسكوتًا, وسكاتًا, وسكت الغضب مثل:سكن ».[2] قال تعالى:﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ (الأعراف: ١٥٤).

والسكتة بالفتح: داء, والسكيت: الدائم السكون.[3]

والسكوت هو: ترك الكلام مع القدرة عليه.

والفرق بينه وبين الصمت والإنصات:

[1] – النهاية في غريب الأثر ٢/٩٦٥– لسان العرب ٢/٤٣– القاموس المحيط ١/١٤٢.

[2] – المراجع السابقة – تهذيب اللغة ٣/٣٢٣.

[3] – تاج العروس ١/١١٠٩– مختار الصحاح ١/١٤٨.

أن الإنصات هو : السكوت للاستماع. يقال: أنصت إذا سكت, وأسكته فهو لازم ومتعد فهو أخص من السكوت.

وقيل الصمت هو: السكوت الطويل, أو السكوت مطلقًا سواء كان قادرًا على الكلام أو لا فهو أعم من السكوت.[1]

ثانيًا : معنى السكوت اصطلاحًا:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للسكوت عن المعنى اللغوي, فقد ذكر الفقهاء أن السكوت هو: ترك الكلام مع القدرة عليه, فهو مختص بترك الكلام, والعلاقة بينه وبين السكوت التضاد.[2]

قال الرازي:« ترك الكلام له أربعة أسماء: الصمت, والسكوت, والإنصات, والإصاخة, أما الصمت: فهو أعمها؛ لأنه يستعمل فيما يقوى على النطق, وما لا يقوى عليه.

وأما السكوت: فهو ترك الكلام لمن يقدر عليه.

وأما الإنصات: فهو سكوت مع استماع, ومتى انفصل أحدهما عن الآخر لا يقال له إنصات كما في قوله تعالى:﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

والإصاخة: استماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد ».[3]

وعلى هذا فالسكوت نوع من الصمت, والصمت اعم منه بخلاف الإنصات والإصاخة فهي تعني معان محددة.

ثالثًا: فضل السكوت وحكمه:

الأصل في الإنسان السكوت ولا يتكلم إلا عندما يريد قضاء حاجاته, فالكلام يؤدي إلى التزام الإنسان بمسؤوليات وتبعات؛ ولهذا كان السكوت مطلوبًا في حالات كثيرة, وخاصة الكلام

---

[1] – معجم لغة الفقهاء ٢٧٦/١– الموسوعة الفقهية الكويتية ١١٨/٢٦.

[2] – الموسوعة الفقهية الكويتية ١١٨/٢٦, ١٠٩/٣٧– التعريفات للجرجاني ٣٩/١– معجم لغة الفقهاء ٢٤٧/١.

[3] – مفاتيح الغيب للرازي ٤٠٠/١٠.

الذي لا يفيد, أوالذي يحمل صاحبه على تبعات, وقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية ما يفيد أن الصمت والسكوت أفضل من الكلام في كثير من الحالات, ومن ذلك آيات كثيرة من أهمها ما يلي:

[أ] قوله تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون: ١: ٣). واللغو هو: الكلام الذي لا يفيد, فالسكوت أفضل منه.

[ب] ما جاء في وصف عباد الرحمن بأنهم إذا مروا باللغو مروا كرامًا أيك لا يتكلمون في الباطل وما لا يفيد. قال تعالى:﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) ﴾ (سورة الفرقان: ٧٢) .

[ج] ما جاء في أمر الله تعالى لمريم بالصمت عندما تعود إلى القوم ومعها وليدها عيسى ابن مريم عليه السلام قال تعالى:﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (مريم :٢٦).

وقد كان الصيام عن الكلام مشروعًا في شرع من قبلنا, ونُهينا عنه فيما روي عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « ... لا يتم بعد حلم ولا صمت يوم إلى الليل .... ».[١]

وقد ورد في السنة ما يفيد أن الصمت والسكوت يكون أفضل من الكلام في حالات كثيرة, ومن ذلك أحاديث أهمها ما يلي:

[١] قوله ﷺ : « إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال[٢], وإضاعة المال, وكثرة السؤال».[١]

---

[١] – ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد, . كتاب النكاح, باب في الرضاع, رقم (٧٣٦٧) ٤/٤٨٠– وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه مطرف بن مازن وهو ضعيف . ص٤٨١. – والمتقي الهندي في كنز العمال, { الإكمال } من كتاب الرضاع من قسم الأقوال ج ٦ ص٤١٣ – رقم (١٥٦٧٩).

[٢] – قيل وقال: الاشتغال بما لا يعني من أقاويل الناس – صحيح البخاري ٢ / ٥٣٧ .

[٢] قوله ﷺ: « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه ».[٢]

[٣] وفي حديث معاذ بن جبل عندما سأل النبي ﷺ : وإنا لمؤاخذون مما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ. وهل يكب الناس في النار على وجوههم أوعلى مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.[٣]

[٤] قوله ﷺ : « إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ».[٤] ومعنى تركه ما لا يعنيه: ترك الأقوال والأفعال وفضول المباحات.[٥]

[٥] وما ورد في حديث سهل بن سعد: عن رسول الله ﷺ أنه قال :« من يضمن لي ما بين لحييه[٦] وما بين رجليه أضمن له الجنة ».[٧]

---

[١] – أخرجه البخاري في صحيحه, كتاب الزكاة, ٥٢ – باب قول الله تعالى { لا يسألون الناس إلحافا } / البقرة ٢٧٣ / . وكم الغنى, ٢ / ٥٣٧ رقم (٥٣٧) , و أخرجه مسلم في الأقضية, باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ٣/ ١٣٤٠ رقم (٥٩٣).

[٢] – أخرجه مسلم في صحيحه, كتاب الحج, باب فرض الحج مرة في العمر, ٢/٩٧٥– رقم (١٣٣٧)

[٣] – أخرجه الترمذي في سننه, كتاب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم, باب : ما جاء في حرمة الصلاة جزء ٥/ ١١ – رقم (٢٦١٦) و قال الشيخ الألباني : صحيح, و قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح– وأخرجه ابن ماجه في سننه, كتاب الفتن, باب كف اللسان في الفتنة ٢ / ١٣١٤– رقم (٣٩٧٣) .

[٤] – أخرجه الترمذي في سننه, ٣٧ – كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤ /٥٥٨ – رقم (٢٣١٨) وقال أبو عيسى وهكذا روى غير واحد من أصحاب الزهري عن الزهري عن علي بن حسين عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو حديث مالك مرسلا وهذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة و علي بن حسين لم يدرك علي ابن أبي طالب.و قال الشيخ الألباني : صحيح لغيره.

[٥] – غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ١/١٠١.

[٦] – (ما بين لحييه) لسانه ولحييه مثنى لحي وهو العظم في جانب الفم. صحيح البخاري ٥ / ٢٣٧٦ .

[٧] – أخرجه البخاري في صحيحه, كتاب الرقاق, باب حفظ اللسان, ٥ /٢٣٧٦ رقم (٦١٠٩)

[٦] ما روي عن أبي ذر أنه لقي رسول الله ﷺ فقال له: " يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما ؟ " قال : بلى يا رسول الله . قال : " عليك بحسن الخلق وطول الصمت فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلها».[١]

فهذه الأحاديث يستفاد منها ان الصمت أولى من الكلام في حالات كثيرة, وأنه ينبغي للإنسان أن يتحكم في لسانه, ولا يتكلم إلا عندما تكون هناك ضرورة للكلام وإلا فالصمت أولى.

وقد روي عن السلف ما يؤيد ذلك قال عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: « والذي لا إله غيره ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان».[٢]

يريد أن السكوت والصمت أفضل من الكلام في حالات كثيرة؛ ولذا قال الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسان ..... وليس يموت من ذلة القدم.[٣]

ولهذا قيل في الأمثال: خير الكلام ما قل ودل , وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.[٤]

وذلك ترغيبًا في الصمت في الحالات التي لا يأمن افنسان فيها من الخوض فيما لا ينفع, والكلام فيما لا يفيد.

رابعًا: هل السكوت أفضل من الكلام مطلقًا ؟

---

[١] – ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد, كتاب الأدب, باب ما جاء في حسن الخلق ٨/ ٤٩– رقم (١٢٦٧٢), و المتقي الهندي في كنز العمال, كتاب الأخلاق من قسم الأفعال وفيه بابان, الفصل الأول في فضلها مطلقا, ٣ / ١١٩٩– رقم (٨٤٠٥) .

[٢] – ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد باب ما جاء في حسن الخلق, ٤٩/٨– و المتقي الهندي في كنز العمال, كتاب الأخلاق من قسم الأفعال وفيه بابان, حفظ اللسان ٣ / ١٣٩٤ رقم (٨٨٩٤) .

[٣] – مجمع الحكم والأمثال, الباب الرابع عشر: باب الصاد, – الصمت والسكوت, وقيل هو من كلام علي بن أبي طالب ج١

[٤] – قال الأوزاعي هو من كلام سليمان بن داود – يراجع: الصمت ١٢٨/١.

لا يمكن الحكم بأفضلية السكوت عن الكلام مطلقًا ولا العكس, فقد يكون الكلام أفضل من السكوت, وقد يكون السكوت أفضل في حالات, وهذا أمر يختلف بحسب الأحوال, ولهذا قرر الفقهاء أن السكوت تعتريه الأحكام التكليفية الخمسة:

فقد يكون حرامًا إذا كان على منكر فيجب أن ينكره بالقول أوالفعل. [1]

وقد يكون واجبًا كما في سكوت المقتدي في الصلاة الجهرية عملا بقوله تعالى:﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤)

وقوله ﷺ :« إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا لك الحمد». [2]

وكذلك السكوت لاستماع الخطبة لقوله ﷺ :« من قال يوم الجمعة لصاحبه : صه فقد لغا فليس له من جمعته تلك شيء». [3]

وقد يكون مندوبًا كما في سكوت الإمام بعد قراءة الفاتحة قدر ما يقرأ المأموم الفاتحة, وذلك عند الحنابلة وبعض الشافعية.[4]

وقد يكون الكلام واجبًا: كما في القراءة في الصلاة.

وقد يكون الكلام حراما: كما في الغيبة مثلا فالسكوت عنه واجب.

وقد يكون الكلام مكروهًا: كما في إنشاء الشعر القبيح أو الترويج لبيع سلعة مثلا, فالحكم يختلف بحسب الأحوال.

خامسًا: هل السكوت أفضل أم الدعاء؟

اختلف الفقهاء في هل السكوت أفضل أم الدعاء؟

---

[1] – الموسوعة الفقهية الكويتية ١٢٢/٢٦.

[2] – أخرجه النسائي, كتاب الافتتاح, تأويل قوله عز وجل { وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون })٢ / ١٤١ – رقم (٩٢١) .وقال الشيخ الألباني : حسن صحيح.

[3] – أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب فضل الجمعة رقم (١٠٣٨) وذكره المتقي الهندي في كنز العمال, كتاب الصلاة من قسم الأقوال وفيه تسعة أبواب, (فضل التبكير) ٧ / ١٢٦٣ .

[4] – الموسوعة الفقهية الكويتية ١٢١/٢٦.

يرى بعض العلماء من أهل الفتوى[1] أن الدعاء مطلوب في كل وقت عملا بالآيات الدالة على الأمر بالدعاء كما في قوله تعالى:﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (الأعراف: ٥٥) وقوله تعالى:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٦٠)

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول ﷺ قال:« ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له, من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له ».[2]

وعن عبدالله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :« من صمت نجا ».[3]

ويرى بعضهم أن ترك الدعاء أفضل استسلامًا ورضا بقضاء الله تعالى, وهو مذهب الزهاد والصوفية, وأهل المعارف.[4]

ويرى بعض الصوفية أنه يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه, ورضا بقلبه ليجمع بين الأمرين:

وقال القشيري:« الأولى أن يقال أن الأوقات مختلفة, ففي بعض الأحوال الدعاء أفضل, وفي بعضها السكوت أفضل, وإنما يُعرف ذلك في الوقت, لأن علم الوقت يجعل في الوقت, فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء, فالدعاء منه أولى, وإذا وجد إشارة إلى السكوت فهو أفضل ».[5]

---

[1] – الآداب الشرعية ٣٨٣/٢.

[2] – أخرجه البخاري في صحيحه, أبواب التهجد , باب الدعاء والصلاة من آخر الليل , رقم (١٠٩٤) ٣٨٤/١– وأخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل– ٥٢١/١– رقم (٧٥٨)

[3] – أخرجه الترمذي في سننه, كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤ / ٦٦٠ رقم (٢٥٠١) , و قال الشيخ الألباني : صحيح.– وأخرجه الدارمي في سننه, (ومن كتاب الرقاق), (باب في الصمت) رقم (٢٧١٣) ٣٨٧/٢.

[4] – الآداب الشرعية ٣٨٣/٢– البحر المديد ٣٣٧/٥.

[5] – البحر المديد ٣٧٨/٥.

فليس في السكوت فائدة لذاته, وإنما لما يترتب عليه كما أن الكلام كذلك ليس مطلوبًا لذاته, وإنما لآثاره؛ ولهذا قال ﷺ :« يا معاذ إنك ما صمت فإنك عالم فإذا تكلمت فلك أو عليك».[1]

وقال الحكماء:

الزم الصمت تعد حكيمًا جاهلا كنت أوعالمًا.

لأن الكلام ينبئ عن عقل صاحبه وعلمه؛ ولذا قيل عقل المرء مخبوء تحت لسانه.[2]

وقد حكى أبو يوسف أن رجلا كان يجلس إليه فيطيل الصمت, فقال أبو يوسف:« ألا تسأل ؟ قال: بلى– متى يفطر الصائم ؟ قال: إذا غربت الشمس.

قال: فإن لم تغرب إلى نصف الليل؟ قال: فتبسم أبو يوسفو وتمثل بقول جرير:

وفي الصمت ستر للغبي وإنما ..... صحيفة لب المرء أن يتكلما[3]

وقد دعا النبي ﷺ المسلم أن يكون جامعًا لأفضل الأقوال فقال:« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت».[4]

وقال:« طوبى لمن عمل بعمله وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله». [5]

وعن وهيب بن الورد قال :« الحكمة عشرة أجزاء : تسعة في الصمت, والعاشر عزلة الناس».[1]

---

[1] – ذكره المتقي الهندي في كنز العمال, الكتاب الثالث من حروف الهمزة في الأخلاق من قسم الأقوال, الإكمال من الصمت, ٣ / ٦٢٦ رقم (٦٨٩٢).

[2] – أدب الدنيا والدين للماوردي ٣٤٣/١.

[3] – الصمت لابن أبي الدنيا ٣٤٤/١.

[4] – أخرجه البخاري في صحيحه, كتاب الأدب, باب (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره) ٢٢٤٠/٥– رقم (٥٦٧٢) , وأخرجه مسلم في الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف, ٨٦/١ رقم (٤٧).

[5] – أخرجه الطبراني في مسند الشاميين, حديث (المطعم عن نصيح العنسي) رقم (٩١٢) ٥٦/٢– وذكره المتقي الهندي في كنز العمال, كتاب الموت من قسم الأفعال, الفصل الرابع في الرباعيات,١٥ / ١٣١٥– رقم(٤٣٤٤٤).

وعن وهب بن منبه: أجمع الحكماء أن رأس الحكمة الصمت.[٢]

وقال عمر بن عبد العزيز:« إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس, فاقتربوا منه, فإنه يلقن الحكمة».[٣]

[١] – الصمت لابن أبي الدنيا ٣٨/١.

[٢] – الصمت لابن أبي الدنيا ٤٩/١.

[٣] – الصمت لابن أبي الدنيا ١٨٣/١.

الفرع الأول

أثر القرينة في دلالة السكوت على الرضا

السكوت عدم محض, ولكن مع قرائنه وملابساته يُفهم منه دلالات يعبر عنها بالكلام, فيترجم السكوت إلى ألفاظ ومعاني لصيقة به بحسب السياق, فالسكوت عن البيان بيان, وهذه من أسرار اللغة كما قال الجرجاني:« فإنك ترى الذكر أفصح من الذكر, والصمت عن الإفادة أزيد إفادة, وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق, وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن».[١] وذلك لأن السياق قد يستدعي ترك الكلام وتحميل المعاني السكوت ليشترك المتلقي والساكت في رسم المراد وفهمه, كما أن هناك من الدلالات ما يتوارى اللفظ عنها مجازًا أوعجزًا أو رفعة, وساعتها يُحسن السكوت ليحمل هذه المعاني إلى المتلقي ويفهمها على حسب ما وردت فيه من الملابسات, فالسياق له أثره في تحديد دلالة السكوت على الحكم الشرعي, فتارة يُفهم من السكوت المشروعية, وتارة يُفهم منه عدم المشروعية, ولا يحدد المعنى المراد إلا السياق الوارد فيه, فتارة يدل على الرضا والموافقة, وتارة يدل على الإنكار والرفض, والذي يحدد هذا أو ذاك هو السياق أو القرينة المصاحبة له, وتارة يدل على على الفرح, وتارة يدل على الغضب, وتارة يدل على الإثبات, وتارة يدل على النفي, ولا يمكن وضوح الدلالة من السكوت بمفرده؛ لأنه عدم محض, وأنه لا ينسب إلى ساكت قول, وإنما بمساعدة السياق الحالي أوالمقالي اللفظي أوالمعنوي, وفيما يلي بيان أثر القرينة في دلالة السكوت على الحكم (الرضا – أو الموافقة– أوالحل)

فمن المعلوم أن الأحكام الفقهية كما تستنبط من أدلة لفظية يستفاد أيضًا من أدلة غير لفظية (السكوت) ومن ذلك ما يلي:

<u>أولا: الحكم بالإباحة عند السكوت.</u>

١

كما في قوله ﷺ :« إن الله حد حدودا فلا تعتدوها و فرض لكم فرائض فلا تضيعوها و حرم أشياء فلا تنتهكوها و ترك أشياء من غير نسيان من ربكم و لكن رحمة منه لكم فأقبلوا و لا تبحثوا فيها».[1]

وجه الدلالة: أن معنى ما سكت عنه الشرع رحمة بالمكلفين من غير نسيان, من غير أن يأمر به أو ينهى عنه أنه يبقى على الحكم الأصلي وهو الحل, فالأصل في الأشياء الحل ما لم يرد دليل بالحظر, فالسكوت هنا يفيد العفو عن الفاعل, والصفح عنه, يعني : الحل.

والقرينة التي تدل على ان المراد بالسكوت هنا الحل هو دلالة سياق قوله:« من غير نسيان» يعني : مادام قد سكت عنها فلا تسألوا عنها, كما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة: ١٠١) فقد يؤدي السؤال عنها إلى الحظر, فالسكوت يعني الحل بدلالة السياق؛ ولهذا جاء في رواية قال ﷺ :« ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته (وما كان ربك نسيا) ».[2]

[1] – أخرجه الحاكم في المستدرك, كتاب الأطعمة, ١٢٩/٤– رقم (٧١١٤) وفى التعليق: سكت عنه الذهبي في التلخيص.وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين, حديث (مكحول عن أبي ثعلبة الخشني) ٤ / ٣٣٨ رقم (٣٤٩٢).

[2] – أخرجه أبو داود في سننه, كتاب الأطعمة, باب ما لم يذكر تحريمه ٣٨٢/٢–رقم (٣٨٠٠) وقال الشيخ الألباني : صحيح الإسناد, وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين, (فضائل رجاء بن حيوة الكندي), (رجاء عن أبي الدرداء)٣ / ٢٠٩ رقم (٢١٠٢) وقال المحقق حمدي بن عبد المجيد السلفي : ورواه البزار والمصنف في المعجم الكبير والحاكم (٢ / ٣٧٥) وصححه ووافقه الذهبي وقال في غاية المرام إنما هو حسن فقط.

الفرع الثاني

أثر القرينة في دلالة السكوت على الرفض (عدم الوجوب)

كما في قصة الأعرابي في الحج فيما روي عن أبي هريرة ﷺ قال:« خطبنا رسول الله ﷺ فقال :« أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا, فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا, فقال رسول الله ﷺ لو قلت نعم لوجبت, ولما استطعتم ,ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم, واختلافهم على أنبيائهم, فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتمو وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».[1]

وجه الدلالة : أن الرجل سأل النبي ﷺ عن وجوب الحج كل عام, فقال: أكل عام يا رسول الله؟ ولو قال ﷺ نعم. لوجب ولما استطاع الناس , ولو قال : لا . لامتنع الناس عن الزيادة في الحج عن مرة.

والحج مفروض مرة واحدة على المستطيع فمن زاد فهو تطوع. فما كان بحسن الجواب اللفظي في الحالتين, فلم يكن أفضل جوابًا من السكوت.

وقد دل السكوت على معان أهمها:

[أ] أن الحج غير مفروض كل عام , وهذا المعنى مفهوم من دلالة السياق في السؤال.

[ب] أن الحج مفروض على العباد جملة, وهو مفهوم من سياق قوله ﷺ في صدر الحديث:« أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا».

[ج] أن الحج لا يجب تكراره, وهو مفهوم من السكوت عن السؤال: أكل عام يا رسول الله؟

فهذه المعاني مستفادة من السؤال ومن سكوت النبي ﷺ, ومن حال المكلفين, وما تتطلبه فريضة الحج من الاستطاعة, فهذه كلها تحدد المعنى.

---

[1] – أخرجه مسلم في صحيحه, – كتاب الحج, باب فرض الحج مرة في العمر, ٢/٧٩٥– رقم (١٣٣٧).

الفرع الثالث

أثر القرينة في دلالة السكوت على الرفض

كما دلت القرائن أن السكوت قد يفيد الرضا أو المشروعية أو الحل فهي تدل أيضًا أن قد يراد بالسكوت الرفض وعدم المشروعية, أو عدم الحل, والذي يحدد ما يحمله السكوت من دلالات هو المقام, والسياق, وقرائن الأحوال المحيطة به, ومن هذه الدلالات ما يلي:

[أ] ما روي عن سهل بن سعد الساعدي: أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يارسول الله إني قد وهبت نفسي لك, فقامت قياما طويلا. فقام رجل فقال: يارسول الله زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة .فقال رسول الله ﷺ : « هل عندك من شيء تصدقها إياه » فقال: ما عندي إلا إزاري هذا. فقال رسول الله ﷺ : « إنك إن أعطيتها إزارك جلست ولا إزار لك فالتمس شيئا » قال: لا أجد شيئا قال :« فالتمس ولو خاتما من حديد » فالتمس فلم يجد شيئا. فقال له رسول الله ﷺ :« هل معك من القرآن شيء » قال: نعم سورة كذا, وسورة كذا لسور سماها. فقال له رسول الله ﷺ :« قد زوجتكها بما معك من القرآن »[1] . فسكوت النبي ﷺ في هذه الحالة يدل على معان منها ما يلي:

[أ] أنه سكت حياءً, حيث أنه ﷺ كان أشد حياءً من العذراء في خدرها, والبكؤر إذا سئلت في أمر الزواج غلب عليها الحياء.

[ب] أنه سكت لعدم الرغبة في هذا الزواج بهذه الطريقة؛ حتى لا تكون سنة متبعة من بعد.

[ج] أنه سكت لرفضه ﷺ الزواج منها وفي التصريح بالرفض حرج لها, وإحراج , وهو ﷺ لا يفعله.

[د] أن سكوته دليل على القبول, لكن ليس قبولا للزواج منها, وإنما قبولا لمبدأ الهبة, وإلا لما سكت ﷺ؛ لأنه لا يسكت على أمر منكر أمامه, أو غير شرعي .

---

[1] – أخرجه أبو داود في سننه, كتاب النكاح, باب في التزويج على العمل يعمل, ٦٤٢/١– رقم (٢١١١) و قال الشيخ الألباني : صحيح. والترمذي في سننه, كتاب النكاح, ٣/ ٤٢١ – رقم (١١١٤) .

[هـ] أنه سكت انتظارًا للوحي, فنزلت الآية بالتحليل والتخيير.

[و] أنه سكت لعلمه أن أحد الصحابة سوف يتزوجها فانتظر كي يستأذنه فيها.

وقد يقول قائل: ولماذا لم يرفض أو لم يرد ﷺ بالرفض, والجواب فيما يلي:

[أ] أن رفضه قد يعيب بالمرأة فلا يتقدم أحد لخطبتها, لكن السكوت حفظ لمكانتها حتى تقدم لها أحد الصحابة.

[ب] أن الرفض فيه حرج وإهانة لها خاصة أمام جمع من الصحابة.

ثانيًا: ما روي عن عائشة – رضي الله عنها– قالت:كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة قالت: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة فقلن لها: إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة, وإنا نريد الخير كما تريد عائشة, فقولي لرسول الله: يأمر الناس يهدوا له أين كان. قالت: فذكرت له أم سلمة ذلك. فسكت. فلم يرد عليها شيئًا, فأعادت الثانية فقالت فلم يرد عليها, فلما كانت الثالثة قال:« قال يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه ما أنزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها» .[1]

وجه الدلالة: أن سكوت النبي ﷺ دليل قاطع على رفضه, فكره ﷺ مخاطبة الناس في شلأن هداياهم, وقد فهمت السيدة أم سلمة ذلك لكنها أعادت ذلك لإلحاح زوجات النبي ﷺ في ذلك.

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه,كتاب الهبة وفضلها, باب ن أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض, ٢/٩١١, رقم (٢٤٤١) وأخرجه مسلم في صحيحه, ٤٤ – كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم, باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها, ٤/١٨٩١– رقم (٢٤٤١) بلفظ: : أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفرع الرابع

أثر القرينة في دلالة السكوت على الإقرار

يحمل السكوت في بعض الأوقات, وفي بعض السياقات دلالات متعددة ومختلفة, قد لا يحملها اللفظ, ولا تعبر عنه الكلمات؛ ولهذا كان السكوت من صاحب الشرع ﷺ أكثر من الكلام.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ مرسل من أجل البيان كما في قوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل: ٤٤) فمن مهاماته الأساسية بيان الشرع للناس, وإذا كان صمته وسكوته أكثر من نطقه وكلامه فإن ذلك الصمت النبوي, وذلك السكوت التشريعي تشريع وبيان لأحكام متعددة للناس, قد قال ﷺ :« إن الله حد حدودا فلا تعتدوها و فرض لكم فرائض فلا تضيعوها و حرم أشياء فلا تنتهكوها وترك أشياء من غير نسيان من ربكم و لكن رحمة منه لكم فأقبلوا و لا تبحثوا فيها».[1]

وجه الدلالة: دل هذا الحديث على أن السكوت بيان؛ لأنه سكوت متعمد من غير نسيان, فهذا السكوت يُفهم منه أمور من أهمها ما يلي:

<u>الأمر الأول</u>: أن ما سكت عنه فهو عفو, يعني معفو عنه, غير مؤاخذ به, فيكون حكمه على الحل, لو فعله الإنسان لا يؤاخذ به؛ لأنه لا إثم على فاعله, فهو مباح.

<u>الأمر الثاني</u>: أن السكوت يعني الأمر, يعني ما سكت عنه من غير نسيان فاسكتوا أنتم عنهو ولا تسألوا عنه, بدليل قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة: ١٠١) وهي دلالة مفهومة من السياق؛ لأنه في مجال تفصيل الحلال والحرام, وبيان الفرائض والحدود, فكأنه قال: ما أمر به فافعلوه , وما نهي عنه فلا تفعلوه, وما سكت عنه فلا تسألوا عنه.

ولهذا كان سكوته ﷺ في مواطن كثيرة معتبرًا للمشروعية والإباحة لكن هذا السكوت لم يدل على محض المشروعية إلا لأنه سكوته ﷺ, فليس سكوت أحد غيره ﷺ معتبرًا لهذا المعنى,

[1] – سبق تخريجه.

فكان السكوت منه ﷺ تقريرًا للمشروعية في كل ما سكت عنه, ولهذا أمثلة كثيرة منها ما يلي:

[أ] سكوته ﷺ عندما أكل الضب على مائدته, فدل هذا على مشروعية أكل الضب, وأنه مباح, ولم يأكل منه ﷺ لبيان أن الأمر على السعة من أراد ان يأكل , ومن أراد ألا يأكل فلا يأكل, فلو قال: أكل الضب حلال, لكان ذلك بيانًا بأنه سنة متبعة, ولكن هو أقل من ذلك, فمن أراد أن يفعله فلا حرج, ومن ترك فلا حرج.

وهذه مرتبة أقل من مرتبة الفعل أوالكلام, هذا السكوت مقرون بأنه سكوت النبي ﷺ, فلا يدل سكوت غيره على ما يدل عليه سكوته ﷺ, فدل السكوت على ما لم يدل عليه الكلام أوالفعل.

[ب] سكوته ﷺ على أكل الفرس بدليل ما روي عن أسماء قالت: نحرنا فرسا على عهد رسول الله ﷺ فأكلناه.[1]

فدل هذا أيضًا على أن الأمر على الإباحة العرفية من وجد نفسه لا تهابه فليأكل ومن لم تطب نفسه فلا يأكل, فلا يكون حرامًا ولا مستقو ولو أكل منه ﷺ لاقتدى به الناس وجعلوه سنة.

فالسكوت أقل دلالة على المشروعية من الفعل أو النهي, ومن ناحية أخرى لم يدل السكوت بمفرده على تلك الدلالة , ولكن الذي دل على ذلك كونه سكوت المعصوم ﷺ , فليس السكوت من أحد غيره معتبرًا بهذه الدلالة .

[ج] سكوته ﷺ على ما يفعل بحضرته وهو قسم من أقسام السنة النبوية , وهو ما يسمى بالسنة التقريرية وهي أشياء كثيرة.

---

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه, كتاب الذبائح والصيد, باب لحوم الخيل, ٢١٠١/٥, رقم (٥٢٠٠) , وأخرجه مسلم كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان, باب في أكل لحوم الخيل, ١٥٤١/٣– رقم (١٩٤٢) .

الفرع الخامس

أثر القرينة في دلالة السكوت على الحياء

من المتفق عليه أن لكل دين خلق, وخلق الإسلام الحياء, ولقد كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها, وكان يُعرف حياؤه من سكوته, وإمساكه عن الكلام وخاصة في أمور النساء, ونلمس ذلك في مواطن كثيرة منها ما يلي:

[أ] ما روي عن عائشة – رضي الله عنها– أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض . فأمرها كيف تغتسل قال: (خذي فرصة من مسك فتطهري بها) . قالت كيف أتطهر ؟ قال (تطهري بها) قالت كيف ؟ قال: (سبحان الله تطهري) . فاجتبذتها إلي فقلت تتبعي بها أثر الدم.[1]

وجه الدلالة: أن سكوت النبي ﷺ عن سؤال المرأة كان حياءً, ولا يعني عدم العلم , فالسكوت لا يعني العدم, وإنما دل على الحياء النبوي, ولو كان من غيره لربما أجاب.

[ب] ما روي عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة, فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله, فكيف نصلي عليك ؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله, ثم قال رسول الله ﷺ :« قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم» .

وجه الدلالة: سكوته هنا يدل على أمور تفهم من السياق:

أولها: أنه ﷺ سكت لأن السائل يسأل عن كيف نصلي عليك وقد أرمت, فهو لم يعرف قدره ﷺ , وأنه ما كان ينبغي أن يسأل ذلك مادام أن الله قد أمر بها, فالله يصلي عليه وملائكته صلاة أبدية سرمدية, فكيف يصلي الله على من مات وصار رمادًا. فكان

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه, كتاب الحيض, باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض وكيف تغتسل وتأخذ فرصة ممسكة فتتبع أثر الدم, رقم١/١١٩– (٣٠٨)و خرجه مسلم في الحيض باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة١/٣٦٠ رقم (٣٣٢)

ينبغي للسائل أن يفهم ذلك ولا يسأل ذلك السؤال, فيفهم من سياق الآية ما يعنيه من السؤال, فالرد من المفترض أن يكون عتابًا؛ ولهذا سكت عنه.

ثانيًا: أن السائل فهم أنه لا يمكن أن يأتي بالصلاة على النبي ﷺ مادام الله يصلي عليه, فلا يمكن للبشر؛ ولذا قال النبي ﷺ :« قولوا اللهم صل على محمد...» يعني: اطلبوا من الله أن يصلي علي مادام أنكم عرفتم أنكم لن تستطيعوا أن تصلوا علي.

ثالثًا: أن السائل أراد أن يصل إلى صيغة تحقق المطلوب الشرعي في الصلاة, فسكت النبي ﷺ؛ ليقر ذلك الفهم عند السائل, أو سكت ﷺ حياءً؛ لأن المسألة تتعلق بشخصه ﷺ, لكنه تكلم لأن الجواب مرتبط بتبليغ أوامر الله تعالى.